# نحو وعي نقدي للهزيمة

## ياسين الحافظ

بعد التطورات العربية الأخيرة، المتمثلة بسلسلة تراجعات انهيارية أمام إسرائيل وأمريكا، لم يعد بوسع أحد، حتى أكثر الظافرويين إيغالاً في الخيال والتفاؤل، أن ينكر أن الأمة العربية تتخبط في هزيمة شاملة مطبقة، وأن محاولة النهضة العربية الثالثة قد أندحرت وصفيت.

الظافريون، الذين توهموا طريق النهضة العربية والثورة العربية طريقاً سهلاً، معبداً، كـ "شارع نيفسكي "، يكرج عليه الثوريون العرب بقدر عظيم من الملاسة، بلا نكسات ولا هزائم ولا قهقرات،- الظافريون هؤلاء سيسقطون بلا ريب في يأس قاتل، ويذهبون للتفتيش عن خلاصة فردي.

في المقابل الثوريون الواقعيون، الغارزون أقدامهم في التربة العربية والمترعون بأحلام الأمة العربية في غد أفضل،- هؤلاء الثوريون سيمحصون التجربة بعيون جديدة وعقل جديد وفكر جديد، مفتشين عن نقطة بداية لنهضة لا تنهزم ولا تنتكس . هؤلاء الثوريون الواقعيون لا يقولون إن الطريق طويل، بل يقولون إن الطريق بحاجة إلى عمل فحسب، إلى شغل وعرق، منتظم، دؤوب، صبور. ثم إنهم يعرفون أن هذه النهضة العتيدة بحاجة أولاً وأساساً إلى وعي جديد.

ما نقطة انطلاق هذا الوعي الجديد؟

هذا الوعي الجديد ينطلق، كما يقول جورج لوكاش، من "نظرية تمتزج فيها نظرية أخلاق اليسار المتجهة شطر ثورية جذرية بتفسير تقليدي محافظ للواقع ".

لقد آن للثوريين العرب أن ينتهوا من الايديولوجيا. وعندها سيكون بإمكانهم أن يهجروا الوعي الامتثالي للهزيمة العربية وينتقلوا إلى وعي نقدي لها.

أولى الايديولوجيات التي ينبغي أن تسقط هي هذه الرؤية العربية، المنتشرة في قطاعات تقدمية واسعة، لسياسات العالم الخارجي إزاءنا، لتناقضاته معنا لمعاركه ضدنا. هذه الرؤية هي مزيج من ايديولوجيا ودراما، بل قل إن في هذه الايديولوجيا شيئاً من أسطورة تقول: الأمة العربية واقعة ضحية مؤامرة متجددة، تحولها قوى خارجية شيطانية، شريرة. ومع استمرار العجز العربي، الذي لا يؤبه بدوره في تشجيع "التآمر" وتوسيع فرص نجاحه، تتضخم الأسطورة وتترسخ لتصبح منظوراً، تقيم من خلاله الأحداث و"تحلل " المعارك، الصراعات والتناقضات.

عندما قلنا إن في هذه الايديولوجيا شيئاً من أسطورة، عنينا أنها تنطوي على شيء يقع إلى جوار الحقيقة الواقعية، على شيء يمت بصلة ما إليها: الأمة العربية عانت، ولا شك، اضطهاداً واحتلالاً، خضعت لهيمنة مارستها دول استعمارية، كما ابتليت باستعمار استيطاني زاحف، لكن، هل كانت، يوماً العلاقات بين الأمم، بما في ذلك علاقات الأمم الأوروبية في ما بينها، على غير هذا النحو الذي عرفته الأمة العربية، في العصر الحديث، في تجربتها مع الاستعمار؟ ثم ، لماذا هذا التساقط السهل أمام الاستعمار، لو لم تكن بنى المجتمع العربي متآكلة ومفوتة، وبالتالي، قابلة للاستعمار؟!

لنتأمل مثال السلطنة العثمانية، عندما كانت متماسكة قوية، كانت مهابة، بل مرهوبة، من الغرب: ألم تدق جيوشها أبواب النمسا؟ لكن ما إن دب في بنيانها التفسخ وتحولت إلى "الرجل المريض "، في وقت كانت فيه أوروبا تحرز تقدمات واسعة حاسمة، حتى أصبحت موضوعاً لسياسات الدول الأوروبية الكبرى وهدفاً لمطامعها الاستغلالية والتوسعية، وانطرحت مسألة اقتسام "تركة" الرجل المريض، اقتسام حالت دونه التناقضات الدولية زمناً طويلاً ، ثم أنجز مع حل هذه التناقضات على نحو ما مع نهايات الحرب العالمية الأولى.

التاريخ مليء بصراعات ومنافسات لا تنقطع بين الأمم . هذا أولاً . ثانياً ، في هذه الصراعات كانت نسبة القوى هي العامل الحاسم . ما أكثر أمثلة التاريخ القديمة والحديثة التي تدعم هذه الأطروحة : السقوط الفارسي والبيزنطي السهل أمام الغزو الإسلامي، التوغل الإسلامي في الغرب وصولاً إلى بواتييه، ثم التوغل العثماني إلى قلب أوروبا، السقوط العربي السهل أمام الغزو المغولي، الصليبي، وأخيراً، وأخيراً، في العصر الحديث، أمام التوسع الاستعماري الأوروبي الحديث وأمام الغزو الاستيطاني الصهيوني الذي تم في سياق الأخير. هنا تتجلى، على نحو ساطع، عقلانية التاريخ والجزاء الذي يفرضه والاستحقاق الذي يعطيه : ضعف أو تفسخ البنيان الداخلي لأمة ما ، هو الذي يستقدم الغزو الخارجي أو الهيمنة الخارجية. والسقوط أمام الخارج ليس سبباً للتفسخ أو الضعف أو التأخر الذي يصيب البنيان الداخلي، بل نتيجة من نتائجه.

بيد أن الفكر العربي السائد، بما هو فكر تقليدوي وتقليدوي جديد، وعاجز بالتالي عن طرح أسئلة واتخاذ موقف نقدي من البنى الحالية للمجتمع العربي، هذا الفكر لا يزال يرفض عقلانية التاريخ. من هنا يبدو الواقع، في مرآته، أشبه بمفارقة خالية من المنطق، ومؤلف بالتالي من سلسلة من الصدف السيئة والحظوظ العاثرة، جاءت بها "خيانة" الزمن أو التاريخ للأمة العربية.

والواقع أن هذا الإحساس الحاد بالجريمة، غير المبررة وغير المفهومة، التي ارتكبها ويرتكبها التاريخ ضد الأمة العربية، يفعم الفكر السياسي العربي الرائج بضرب من التوتر المأساوي، يجعله عاجزاً عن القبض على وعي مناسب أو مطابق ( للواقع)، يشكل مقدمة لأزمة خروج الأمة العربية من هزيمتها الطويلة.

هذه الرؤية الدرامية (وهي، في التحليل الأخير، رؤية دوغمائية دينية) للهزيمة العربية نجدها، أول ما نجدها، في مفردات الأدب السياسي العربي الرائج : مؤامرة، خيانة، عمالة، انحراف، تجسس، مخطط إمبريالي عميل، إلخ. وفي مرحلة قبيل هزيمة حزيران/ يونيو وما بعدها انتشرت مفردات إضافية أكثر توتراً : تصفية قضية فلسطين، الحل السلمي الاستسلامي، قرار مجلس الأمن التصفوي، المخطط الأمريكي- الإسرائيلي- الرجعي للتآمر على كذا وكذا.

بالطبع، لا يسع أحداً أن ينكر أن هذه الأعمال والأساليب تشكل جزءاً من "عدة الشغل " في الصراعات الدولية، لكن العامل الحاسم في هذه الأخيرة هو شيء آخر، هو نسبة القوى الفعلية (أو ميزان القوى) بين الأطراف المتواجهة. كل "عدة الشغل " الإمبريالية والصهيونية والرجعية ما كانت تساوي قشر بصلة لو كانت البنية العسكرية المصرية أقل تأخراً فأحبطت العدوان الإسرائيلي في حزيران/ يونيو ١٩٦٧. المياه الراكدة هي وحدها التي تجمع الطحالب والجراثيم والطفيليات، والبنى المتآكلة هي وحدها التي تتيح للمؤامرة أن تحبك.

من دون هذا التوتر الدرامي تغدو التسميات أكثر مطابقة للواقع وأشد فضحاً لعوراته : بدلاً من "مؤامرة" نقول "ميزان قوى"؟ بدلاً من "قوى شيطانية شريرة" نقول "قوى دولية تخدم

مصالحها القومية" (كما نخدم نحن مصالحنا القومية)؟ بدلاً من "ضحية" نقول "مجتمع مفوّت عاجز عن الدفاع عن وجوده ومصالحه " إلخ.

هذا التوتر الدرامي، الذي يستند ويصوغ التصور المؤامراوي العربي ، يضعف إلى أقصى حد، إن لم يعدم، الرغبة في التعرف على الواقع العياني. إذ ماذا تضيف هذه المعرفة ما دام العدو هو العدو؟! أليس أمراً مذهلاً ألا يعنى الفكر السياسي العربي السائد، ناهيك عن النخب العربية النافذة، بالتعرف مثلاً على واقع إسرائيل (يكتفي بشتمها ورسم صورة ايديولوجية عنها، في وقت تعرف فيه إسرائيل كل / شيء عنا) مع أنها تشكل أكبر تحد إذلالي للأمة العربية؟

انعدام روح الفضول لدى الفكر العربي السائد، عجزه عن طرح أسئلة وميله إلى تقديم أجوبة يقينية فقط، كونه فكراً إيمانياً لا يميز بين حكم القيمة وحكم الواقع، يحجره في حدود العمس (Syncretion) أي الإدراك الطفولي، وهو الإدراك غير المتميز، الحسي، العمومي، المشوّش، للواقع. من العمس تولد النزعة التأويلية (أو التأويلوية) في التحليل السياسي العربي. والواقع، ما الذي يمكن أن تفرزه "أدوات معرفية" كـ "خيانة" و"عمالة" و"مؤامرة" و"انحراف "، سوى الشلف التأويلي في النظرية والإرهاب الجسدي والفكري في الممارسة.

في التأويلية، التي تذكر بمناهج التفكير لدى الفرق الباطنية، تشحب أو تغيب مقولة الواقعي (الواقعي هنا ضد أو نقيض اللاواقعي، المتخيل، المتوهم): العياني والمباشر منبوذان أو مؤولان على نحو أحول ومدرجان في سياق لاعقلاني. بما أن الظاهر قشر ظاهري، أي ما دام ليس ثمة من ترابط بين الظاهر والباطن (والباطن، هنا، يعني الجوهر)، أو ما دام الظاهر مجرد تمويه للباطن، "تغوص " التأويلوية "عميقاً" في البحث عن الأسباب البعيدة للحدث السياسي، وتجعل من التجريد تجريداً للحدث من كل واقعيته، زاعمة أنها تريد أن تمسك، أو هي تمسك فعلاً، بأسبابها الخفية، المدلّسة، غير المرئية، الأصلية.

هذا الذي يزوّر عن العياني والمباشر والراهن ويتركها تفلت من حقل رؤيته، ليمسك بالخفي، غير المرئي، البعيد، العميق، سرعان ما يجد نفسه، ما دام الخفي خفياً وغير المرئي غير مرئي والبعيد بعيداً والعميق عميقاً ، منساقاً إلى الشلف من جهة، وإلى التأويل من جهة ثانية.

الشلف، الناجم عن عجز أو عن إعراض عن التقاط الوقائع والأشياء ذات الكثافة والقوام والحجم، ناهيك عن الدقاق (Nuances) (أو الفروق الدقيقة الغامضة) التي فيها، يتشبث بـ "شبه الواقع " أو "خيال الواقع "، اللذين لا يوجد فيهما، في أحسن الأحوال، إلا العموميات التي تهمهم بكل شيء ولا تقول أي شيء. ثم يأتي التأويل، الذي هو عملية تجميع هذه العموميات أو خيالات الواقع، بوحي من مسبقات وقبليات، في صورة ايديولوجية، تنفس غضباً أو تستر قصوراً. هنا تصب التأويلوية في ضرب من الإيمانوية الجديدة، المجددة، التي انتشرت في المشرق العربي، بعد الحرب العالمية الثانية بخاصة، على أيدي عدد من منظري الحركة القومية العربية أولاً، والماركسية العربية المسفيتة الستالينية ثانياً . لذا ليس ثمة ما يدعو إلى الاندهاش عندما نرى ذلك التشابه الكبير، في المنهج على الأقل، بين "تحليلات " حزب التحرير الإسلامي و"تحليلات " أحزاب وجماعات قومية عربية وماركسية عربية مسفيتة وماركسية مستحدثة فوق ثورية.

هذا التصور المؤامراوي، المستند إلى الشلف التأويلي والمترافق معه، جلب المزيد من الانحطاط إلى الوعي العربي، وحوّل "تحليلاته " إلى شطحات وهلوسات سكيزوفرينية، على الرغم من أنها يسارية وثورية، لعبت أشد الأدوار شؤماً في تسهيل الهزيمة وتزمينها. وهذا يفسر لماذا

ترافق، لدى الحركة القومية العربية لما بعد الحرب العالمية الثانية، تصاعد عدائها للإمبريالية وتزايد هشاشتها أمام ضربات الأخيرة وإسرائيل.

وإذا كان التصور المؤامراوي، بتركيزه على العامل الخارجي في الهزيمة العربية، قد جعل المجتمع العربي القائم بمنجاة من التشكيك والنقد، كذلك فإن الشلف التأويلي قد طرد مقولة "المطابقة" (Adequation) بوصفها نافلة أكاديمية، برجوازية، تضيع الحقيقة العامة، المثبتة من قبل، في أكوام من التفاصيل وفي متاهات المماحكات حول الجزئيات.

في الوعي النقدي الجديد المطلوب، حيث ينبغي قلب الإشكالية القديمة السائدة في الفكر السياسي العربي التقليدوي والتقليدوي الجديد، وكذلك الماركسي العربي المسفيت والمستحدث، تتغير صورة الواقع في ذهننا، بل إن هذه الصورة، التي كانت مقلوبة ومضببة في التصور المؤامراوي والشلف التأويلي، تعود إلى وضعها الطبيعي، حيث يستوي الواقع واقفاً على قدميه وجلياً .

إن الوعي النقدي الجديد، في سعيه وراء المطابقة، ما دام قد تخطى الايديولوجيا القوماوية وكل رواسبها فلم يعد يعتبر نقد المجتمع من المحرمات، يهيّر أو يقلب أو يعدل كل العمارات الايديولوجية القديمة المشيدة في أذهاننا عن الواقع. وعندئذ يغدو الكثير من الحقائق العامة قاصراً عن تفسير هذا الواقع من جهة، ومختزلاً نوابضه، حيزاته، عناصره وحركته من جهة أخرى.

لنأخذ مثلاً :

الصورة التي للصراع العربي- الإسرائيلي في الايديولوجيا السياسية العربية الرائجة تقول إن الاستعمار هو الذي أقام إسرائيل. هذه الصورة ليست وهماً خالصاً ، بل على العكس فهي تستند إلى/ وتنطوي على عدد من الوقائع، ولكن وقائع مأخوذة بشكل انتقائي، مشرذم، جزئي من جهة، ومدرجة في بناء ايديولوجي ينسجم مع مسبقات ايديولوجيتنا التقليدوية ويرضي شعورنا ونزعاتنا من جهة ثانية. لا شك أن سيرورة تكون إسرائيل قد تمت في إطار السياسة الاستعمارية وكفرع من حركة التوسع الاستعماري الأوروبية، وأن الانتداب البريطاني فتح الباب، من خلال وعد بلفور، لبناء دولة إسرائيل. ولكن ما أبعد هذا عن القول إن الاستعمار هو الذي أقام إسرائيل.

هنا، الفكر العربي التقليدوي الجديد بعامة والنخب العربية النافذة بخاصة تدلس على الشعب العربي: عبر حقيقة أو حقائق عامة يجري تهريب أكذوبات تستر واقع الفوات العربي وتموّه الهزيمة العربية، السهلة والمخجلة. فلنتساءل:

أ- لو أن البنية السياسية الفلسطينية بخاصة، والعربية بعامة، كانت أقل تأخراً، أما كان بإمكانها أن تحبط وعد بلفور (الذي كانت السياسة البريطانية مترددة ومتذبذبة بشأنه)، كما أحبطت، مثلاً الحركة القومية التركية، ممثلة بالكمالية، معاهدة سيفر (المعقودة عام ١٩٢٠ والقاضية بتجزئة واقتسام الإمبراطورية العثمانية ووضع تركيا، شأن المشرق العربي كله، تحت الانتداب الفرنسي والإنكليزي)، وطردت قوات الغزو الاستعمارية واستعادت وحدة تركيا واستقلالها؟!

ب- هذا الباب الذي فتحه وعد بلفور (والذي مكن من توطين عدد من اليهود في فلسطين أقل بكثير من عدد اليهود الذين أرسلتهم الدول العربية إلى إسرائيل غداة قيامها)، أما كان بإمكان البنية السياسية الفلسطينية أن تغلقه نهائياً لو كانت أقل تأخراً، وبالتالي أكثر فاعلية وأشد بأساً من الحركة الصهيونية؟!

ج- ما مغزى، بالنسبة إلى دور الانتداب البريطاني، أن يكون حد الحركة الوطنية الفلسطينية موجهاً ضد الصهيونية بالأحرى لا ضد الانتداب البريطاني؟ وأيضاً ، ما مغزى كون التناقض الرئيسي، القتالي، في فلسطين قد أصبح، مذ صدر الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩، بين الحركة الصهيونية والاستعمار الإنكليزي، في وقت بقيت فيه الحركة الوطنية الفلسطينية في موقف المتفرج؟! ألا تلقي هذه الواقعة ضوءاً على التصرف السوفياتي إزاء مشروع تقسيم فلسطين وبيع اليهود، خلال حرب ١٩٤٨، سلاحاً والاعتراف بدولة إسرائيل؟!

د- ثم، لماذا، في كل عام، نقيم، نحن العرب، المآتم بمناسبة ذكرى قرار تقسيم فلسطين الصادر عن هيئة الأمم المتحدة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧، موهمين أنفسنا ومحاولين إيهام العالم أن الكارثة قد وقعت في ردهاتها وكواليسها، وأن إسرائيل قامت بقرار منها، في حين أن المعركة حسمت على أرض فلسطين وأن إسرائيل أصبحت، بقوة السلاح الصهيوني، أمراً واقعاً ونهبت من الأرض العربية أكثر بكثير مما أقره لها قرار التقسيم المذكور، وأن هذا الأمر الواقع لم يلبث أن فرض نفسه على تردد الدول الغربية، ومنها الولايات المتحدة؟! وبالتالي، ما كانت الدول الإمبريالية لتعارض العرب فعلياً بالقوة لو أنهم، في ساحة المعركة، أحبطوا قرار التقسيم ومنعوا قيام إسرائيل، وأن قرار التقسيم كان سيعدل عندئذ في ضوء الواقع الفعلي الذي يصنعه العرب.

هـ- وأخيراً لجوء إسرائيل إلى الدول الاشتراكية لاستدراك حاجتها من السلاح، ألا يعني أن الغرب، خلال تلك الفترة، لم يمدها، نظراً لتأرجحه وتردده، بحاجتها منه؟!

هذه الوقائع، وهي عينات من فيض ، التي بسطناها في صيغة تساؤلات، ليست بالطبع أسراراً ، بل هي جزء من تاريخ منشور ومعروف، بيد أن العمس العربي، الذي تغزوه ايديولوجيا تقليدوية وتقليدوية جديدة، لم يتوقف عندها، أو حولها إلى عناصر في وعي ايديولوجي زائف، غير نقدي، للمأساة والهزيمة العربيتين.

الخارجي ليس شيطان العرب إلا بقدر ما يسمح له بذلك تآكل وفوات الداخلي : الفوات العربي هو ذلك الشيطان. إنه لتقليد عربي قديم، بدأ مع بدايات سيرورة الانحطاط العربي، أن نردّ مسؤولية البلايا العربية على الخارج. هذا التقليد عاد إلى الانبثاق مع العصر الحديث، لأن الوعي العربي كان ، ولا يزال، وعياً امتثالياً محافظاً . إن عداء أمتنا للاستعمار وللإمبريالية مبرر ومشروع، بما هي أمة مضطهدة، مجزأة. لكن هذا العداء بقي سلبياً ، أي لم يتحول إلى رؤية إيجابية تجعله ينطوي على مشروع ثوري مستقبلي، وبالتالي على رفض كل عمارة المجتمع العربي التقليدي وشبه التقليدي، بتقليدها، بايديولوجيتها، بطوابقها الاجتماعية والثقافية، فضلاً عن مرتكزاتها الاقتصادية. مثل هذه الرؤية هي التي تفسر كيف تحوّل هذا العداء إلى حجاب يموّه العجز العربي والهزائم العربية، كما فاقم التخلف العربي، فبقي- أي العداء- مجرد نواح ، ذي نغم جديد، على الأطلال.

عندما نقرّ، وهذه حقيقة، أن الخارجي يفعل بقدر فوات وتآكل الداخلي، لا نعود بحاجة للصراخ على الطالع والنازل على الخارجي . بل سيكون تثوير وتحديث الداخلي واقامة بنى جديدة، وبالنتيجة تعديل نسب القوى، وسيلة الفعل بالخارجي.

فقط انطلاقاً من رؤية كهذه نتجاوز منظوراتنا القدرية ( الاستسلامية ضمنياً ) إلى القدرة الإمبريالية وإحساسنا بالدونية إزاءها (منظورات تلقي بنا إما في نزعة انتحارية أو نزعة استسلامية محافظة)، ونسير في طريق يؤهلنا للتأثير فعلاً بالسياسات الإمبريالية والصهيونية، تعديلها أو إفشالها وتحطيمها بحسب الأحوال.

امتلاك فاعلية كهذه يتطلب، بادىء ذي بدء، أن نفرز ما هو واقعي عن ما هو ايديولوجي في تصورنا لتلك السياسات. إن فرزاً كهذا يستدعي : (١) تجنب الشعورية في التقويم، والتمييز ( لا الفصل) بين حكم القيمة وحكم الواقع. (٢) فهم نوابض ، عناصر، منطق، منهج، السياسات الحديثة بوجه عام وسياسات الدول الكبرى بوجه خاص . وفي كل الأحوال، إذا لم نع أن البلايا العربية أكبر وأعمق بكثير من مشكلة التأثيرات السلبية للسياسات الاستعمارية والإمبريالية، وأن التظاهرة الكولونيالية والإمبريالية تشكل عنصراً فحسب في السياسات الخارجية للدول الصناعية الرأسمالية الكبرى، إذا لم نع ذلك لا نكون قد وضعنا أقدامنا في طريق امتلاك وعي مطابق.